آثار الشرق القديمة

كنوز السلطنة العثمانية

الاراضي ما بين النهرين وخطبة السير ويليم ويلكوكس

نشرنا في الجزء الاخير من السنة الماضية (الصفحة ٨٦٥) مقالة عنوانها ,, المدنية الجديدة والمدنية القديمة في الدولة العثمانية ,, وتكلمنا فيها عن الاراضي ما بين النهرين (دجلة والفرات) وخطة سكة بغداد الحديدية . وقد قلنا يومئذٍ في مقدمتها ما نصه ,, ان هذه الارض كانت وطناً لاقدم مدنية . قال المسيو ليفي : ان اراضي ما بين النهرين وجهات بابل كانت في القرن الخامس قبل الميلاد المسيحي في حال خصب لا يُصدق . فان ملك الفرس خسرو الثاني كان يجمع منها من الضرائب في السنة ما يساوي اليوم ٨٠٠ مليون فرنك . وكانت هذه الضرائب تبلغ ثلث حاصلات الزراعة . فتكون غلة تلك الاراضي في كل سنة ١٢٠ مليون ليرة فرنسوية وهي ثروة لا تعادلها ثروة . وبما ان دخل الدولة العلية يبلغ اليوم من ٢٥ الى ٣٠ مليون جنيه في العام فتلك الارض المهملة اليوم والتي تحرقها الشمس طول النهار يساوي دخلها وحدها مضاعف دخل الدولة اربع مرات . ولذلك كان المقدَّم على كل شيءٍ التفكير في احيائها . واذا كانت الفكرة العسكرية قد احلّت مشروع سكة بغداد الحديدية في اسمى منزلة في ذهن جلالة السلطان فان هذه الفكرة المالية قد زادت ولا شك اهتمام جلالته به ,,

ولم يكن يومئذٍ يخطر لنا بالبال عند كتابة تلك السطور ان جناب المهندس المشهور السير ويليم ويلكوكس كان في مثل ذلك الوقت تقريباً يشتغل باعداد خطبة في غاية الاهمية في هذا الموضوع . وقد القى حضرته هذه الخطبة في العاصمة في اواسط مارس لهذا العام على جمهور غفير من محبي الفوائد بين وطنيين واجانب فرأينا من الواجب بعد الفصل الذي كتبناه بهذا الموضوع ان ننشر خلاصة خطبته هذه وذلك نقلاً عن جريدة المؤيد . واليك هذه الخلاصة

« قال في مقدمة الخطبة « يُروى عن المأمون ابن هارون الرشيد انهُ قال لما صعد على جبل المقطم وابصر ارض وادي النيل منبسطة امامهُ « ما كان اضلّ فرعون لما قال متبجحًا « أليس لي ملك مصر » وهو لو رأى ارض الجزيرة لاستحي ان يقول ما قال » ولكن المامون بلا شك قد بالغ في القول لان مصرًا كانت وستبقى دائمًا ملكة البلاد التي تروى اراضيها . ويعقبها بلا خلاف في الدرجة الارض العجيبة التي كان يرويها الدجلة في الازمان الماضية . وهذه سكة حديد بغداد تزحف من جهة الغرب والمدنية الغربية تكسح امامها الاعراب المنتشرين في تلك البقاع وتبدّدهم ايدي سبا . ولطالما خطر ببالي انهُ في الامكان مدّ سكة حديدية تبتدئ من الخليج الفارسي واخرى من شاطئ البحر الابيض المتوسط وان يلتقي هذان الطريقان في وادي نهر الدجلة والفرات »

« ثمّ انتقل من ذلك الى الكلام على سكة حديد كندا في شمال اميركا وكيف منحت اميركا شركتها ارضًا واسعة لمد خطوطها وان الحال لا يستلزم مثل هذه الارض فيما يختص بسكة حديد بغداد . ثم اخذ يصف وادي الدجلة والفرات فبدأ ببغداد وما حواليها واطال في هذا الوصف وعرج على ما لهذه البقعة من الاثر التاريخي نقال في هذا الصدد

« تعلو بغداد على سطح البحر بمقدار ستة وستين مترًا وتبعد عن البحر بمسافة ٨٠٠ كيلو مترًا اذا قيست على شاطئ الدجلة ولكنها على مسافة ٥٥٠ كيلو مترًا اذا قيست على خطّ مستقيم . ويحيط ببغداد ارض مقفرة في هذا الزمان ولكنها كانت في ازمان ماضية تاج ممتلكات الدول التي قبضت على ناصية الشرق . هناك يوجد كنز الملوك التي حكمت الشرق . فحيثما ذهبت يمينًا او شمالاً لا تطأ اقدامك الاّ ارضًا تاريخية . فاذا نزلت جنوبًا على شاطئ الدجلة ترى آثار مدينة الدورة التي كان يبتدئ بجوارها بحر النهروان (او ترعة النهروان) ثم ترى السهل الذي اقام فيه بختنصر تمثاله الذهبي الذي شيده على ما يظن تذكارًا لاصلاح ذلك البحر . ثم ترى بعد ذلك (تل البلج) الذي مات فيه الامبراطور جوليان من جراحه عند ما كانت نتيجة طرد الرومانيين من تلك البقاع انتقالها بل انتقال العالم الشرقي الى دولة الفرس . ثم بغداد دار السلام ومقرّ ملك الخلفاء وحيث كان عرش هارون الرشيد . وترى ايضًا آثار كتسفون عاصمة ملوك دولة بني ساسان الفارسيين . ثم بابل القديمة وغيرها وغيرها . وكان يحمي هذه الارض الواقعة على ضفاف الدجلة سور مدين من جهة الغرب — ومن المحتمل ان هذا السور كان مقامًا على ضفة ترعة ري . ومن الغرب ببحر النهروان . وبذلك صارت هذه البقعة آمنة من تعديات صعاليك الاعراب واغنى البقاع في

بلاد الشرق

« وكما ان (مينا) حوّل النيل من مجراه الغربي وساقه في طريق سفح صحراء العرب ليحمي به عاصمة مملكة منفيس من العرب الرحالة كذلك انشأ الملوك الكلدانيون الاولون تلك الترع الكبيرة لحماية البقاع الخصبة والمدن الآهلة العامرة على شواطئ الدجلة

« ثم انتقل من ذلك للكلام على ان مياه الامطار لا تكفي لري تلك البقاع وانه حصل على المعلومات الخاصة بمقدار سقوط الامطار وكل ما يتعلق بالمسائل الجوية من مذكرات للكبتن فيلكس جونس احد ضباط البحرية الهندية الذي اقام ازماناً طويلة في بغداد لدراسة كل ما يتعلّق بالريّ هناك وان الذي استلفت نظره الى هذه المذكرات هو المستر سبرنج رايس الذي كان مندوب انكلترا في صندوق الدين المصري (والآن في سفارة بطرسبرج) ثم قال انه لا دخل له في السياسة مطلقاً وان كل ما يرمي اليه هو ان يرى (عشرة عيدان من الحشائش تنمو في مكان لا ينمو فيه عود واحد الآن »

« ثم شرع يتكلم عن مجرى نهر الدجلة ونبوعه من بحيرة (فان) في بلاد فارس ومروره على آثار مدينة نينوى القديمة وذكر ان مدينة اوبيس القديمة اشبه في مركزها بالنسبة لنهر الدجلة بمدينة القاهرة بالنسبة لنهر النيل . فكما ان القاهرة على مسافة قليلة من رأس الدلتا وتوجد على مقربة منها القناطر واصول الفروع التي تروي ثلاثة ملايين فدان من ارض الدلتا كذلك كانت اوبيس على مقربة من رؤوس الترع التي كانت تروي ارض دلتا الدجلة . وكأنما ارادت الطبيعة ان تكون هذه البقعة مصدراً لنظام خاص بالريّ »

« ثم انتقل الى الكلام عن نظام الري القديم في تلك البقاع وانه كان هناك بحر النهروان على الشاطئ الايسر ونهيز الدجيل من الشاطئ الايمن من نهر الدجلة وكيف كانت تلك البقاع جنة . ثم اخذ يبين سبب انحلال ذلك النظام الهندسي وتسرب الخراب الى تلك البحار والترع مما يدخل في ضمن دائرة المباحث الهندسية ولذلك نضرب عنه صفحاً

وبعد الكلام طويلاً عن ماضي تلك الاصقاع وما آلت اليه من الخراب والدمار حتى صارت صحراء بلقعاً تهب فيها رياح السموم قال في صحيفة ١٥ وما يليها

« ولقد تكلمنا كثيراً عن اسباب هذا الخراب ووصفنا حالة الدمار . واما اعادة هذه الديار الى ماضيها فلسنا ننتظر ان يذهب اليها الاوروبيون ليستعمروها ويعيدوا خصبها بل الذي يغلب على الظن ان اهل الشرق سيذهبون اليها ليعيدوا شبابها ويستثمروا ارضها . وهذه سكة حديد بغداد كما قلنا تزحف من الغرب وستقام خطوطها

الحديدية على ضفاف ترعة النهروان بعد تجديدها واصلاحها ونرى بعد ذلك ماء الحياة والخصب يجري في عروق ارضها . وليت شعري هل تصلح هذه الديار باموال انكليزية تُساق اليها من الخليج الفارسي جنوباً ام باموال المانية تأتي اليها من سكة حديد بغداد غرباً؟ ولكن ما لاخلاف فيه هو ان اعادة الترع المذكورة ستؤدي الى احياء اراضٍ واسعة حول سكة حديدية تشبه في غناها وخيراتها ارض مصر ونقوم محصولاتها بنفقات السكة الحديدية واعمال الري ويزيد من ايراداتها مقدار كبير لا يقدر قيمته الا الذين خبروا احوال الزراعة المصرية . وليس ببعيد ان يقوم عمال من الهند وربما يكونون من المصريين بحفر الترع وانشاء القناطر التي تعطي المياه بقدر معلوم . ثم يستوطنون تلك الاراضي ويحيون مواتها فتكثر موارد خيراتها وتنمو ثروتها وكأنهم في بنجاب او مصر اخريين »

« ثم اخذ بعد ذلك يبين لسامعيه الاعمال التي تلزم لاعادة تلك الترع واصلاح الري في تلك البقاع ولبيان مقدار ما يلزم من الاموال وما ينتظر من فوائدها فقال

« ان مساحة الارض الواقعة غربي مجرى نهر الدجلة القديم تبلغ ٢٨٠٠٠٠ فدان والارض الواقعة بين المجرى القديم والجديد ١٦٠٠٠٠ فدان والارض الواقعة شرقي الدجلة شمال بغداد ٤٢٠٠٠٠ فدان وجنوب بغداد ٤٢٠٠٠٠ فدان فيكون مجموعها ١٢٨٠٠٠٠ فدان . وقدر النفقات اللازمة لاصلاح الري بمبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات . وقدر اثمان الاراضي المذكورة على حساب ٣٠ جنيهاً الفدان بمبلغ ٣٨٠٠٠٠٠٠ جنيه . وايجارها على حساب ثلاثة جنيهات عن كل فدان بمبلغ ٣٨٤٠٠٠٠ جنيه . وفرض انه يصرف في كل عام على اعمال الري والسدود والقناطر ١٨٤٠٠٠٠ جنيه . فيبقى بعد ذلك ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه ايراداً لراس مال قدره ٨٠٠٠٠٠٠ جنيه فيكون الربح باعتبار ٢٥ بالمائة . ثم سأل سامعيه « فليقل الذين خبروا مصر هل تُعدّ هذه الارقام مبالغاً فيها » ثم قال

« اكتفيت بالكلام عن الاراضي الواقعة عند ابتداء دلتا نهر الدجلة لانني ارى ان هذه الاراضي اهم ما يستحق الذكر في تلك البقاع ولكن هناك قطعة ارض اخرى مملوءة الآن بالمستنقعات وهي واقعة بين الدجلة والفرات . وهذه البقعة في الحقيقة لا تقارن بالارض الكائنة بقرب بغداد وهي التي سبق الكلام عنها ولكن هذه البقعة الاخيرة كانت في الازمان السابقة كثيرة الخصب تخترقها ترع ومجار لريها وكانت آهلة بالسكان »

ثم اخذ يتكلم عن هذه البقعة فقال انها تُسمى في كتب العرب (بالعراق العربي) ومساحتها تقدر بمليون وخمسمائة الف فدان اي عبارة عن نصف مساحة الوجه البحري في

مصر ثم قال :

« لما استوطن الكلدانيون القدماء ـ وهم القوم الذين جابوا الاقطار وركبوا متون الاسفار من شرق البلاد الى غربها ـ هذه البقعة لا بدّ انهم وجدوا نهري الدجلة والفرات يسيران في مجراهما الطبيعي اللذين كانا يحفظان مياههما على الدوام . ولا شك في ان مياههما كانت تفيض في بعض الاحايين على الاراضي المحيطة بهما . ولكن لما ازداد عدد الاهالي وكثرت الحاجة الى اصلاح الاراضي وحمايتها من الفيضانات انشئت الترع واقيمت الجسور وبنيت القناطر ووزعت المياه في المصارف بقدر معلوم فاخذ مجريا النهرين في التغيير على حسب ما يناسب الحالة الجديدة . فلما تغيرت الايام وتبدّلت الاحوال واقبلت المصائب والرزايا بكلكلها على هذه البلاد وسدّت افواه المصارف والترع لم يعد مجريا النهرين قادرين على تحمل المياه ففاضت حتى صيرت تلك البقعة الواسعة مستنقعاً وهكذا وصلت الى ما وصلت اليه اليوم

« وفي هذه النتيجة التي وصلت اليها بلاد العراق خير درس لمصر يجب ان لا تنساهُ في ايام عزها وثروتها

« ويعرف المشتغلون بهندسة الريّ ان طريقة الريّ من مجرى النهر الاصلي ان المياه كانت تؤخذ من النيل مثلاً في اوّل الفيضان محملة بالطمي ثم تعود اليه في التصفية خالية من الطمي المذكور وبذلك كان مجرى النيل يبقى نظيفاً حافظاً لشكله الاصلي واتساعه المعتاد ولهذا السبب عينه وجدنا نهر النيل بعد سبعة آلاف عام قادرًا على تحمل مياههِ كما كان ايام (مينا) . اما الآن وقد حلّ الريّ الصيفي (اي الريّ بواسطة الترع وغيرها) مكان الري من مجرى النهر فنحن نقلد الكلدانيين فيما عملوه على شاطئ الدجلة والفرات . فلذلك ارى من الواجب علينا ان نراقب بعين اليقظة مجرى نهر النيل ولا نتركهُ ينقص او يضيق عن تحمل مياههِ وواجب ان تتخذ الاحتياطات باخذ المقاسات السنوية حتى اذا وقفنا على نقص في جهة عملنا على تدارك الخطب قبل استفحاله »

« وعاد بعد هذا الى موضوع امكان اصلاح العراق العربي وما يلزم بناؤُه وانشاؤُه من الترع والجسور وغيرها فقال : انه وصل الى علمهِ ان جلالة السلطان عبد الحميد بدأ بنجاح وافر في احياء الاراضي الواقعة بالقرب من بابل وذلك بانشاء ما يلزم انشاؤُه لاحيائها .

واذا اعتمدنا في تحقيقاتنا على النفقات التي أُنفقت على القناطر والجسور والمصارف في مصر نقول ان هذه الاعمال نفسها في وادي الدجلة والفرات تكلف جنيهًا واحداً عن

الفدان الواحد لانشاء القناطر ونصف جنيه عن الفدان للجسور وجنيهين ونصفاً عن الفدان للترع وجنيهاً ونصفاً عن الفدان للمصارف او بعبارة اخرى عشرة جنيهات عن كل فدان »

« وذكر ان هذه الارقام ما خوذة من كتابه المسمي « الري المصري » وانه وصل الى تقديرها بعد خمس عشرة سنة قضاها في الاختبار والعمل . ويؤخذ من الجدول الآتي البيان الكافي عن تقديرات الخطيب لاثمان الاراضي ونفقات الاعمال الخاصة باصلاح ريها »

	فدن	نفقات الاعمال	ثمن الارض
كلدانيا الشمالية	١٣٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٩٠٠٠٠٠٠
كلدانيا الجنوبية	١٥٠٠٠٠٠	٣٢٥٠٠٠٠	١١٠٠٠٠٠٠
المجموع	٢٨٠٠٠٠٠	٥٢٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠

« وقال في ختام خطبته ما يأتي « تسمى بغداد دار السلام ولكنه سلام سوف يحل ساحتها وهو السلام الذي حرمت منه في زمان طويل منذ ايام تيمور وهلاكو وغارات التتار الذي كان قدومهم الى تلك الاصقاع انكى وادهى من تغيير مجرى الدجله وتركه تلك الارض قاعاً بلقعاً . وستكون هذه الارض غرة في جبين الدنيا يهرع اليها الوف العمال من الهند ومصر لانشاء السكة الحديدية من الكويت (او القويط) شمالاً والترع والمصارف بالقرب من آثار اوبيس القديمة جنوباً . وهكذا تنقل السكة الحديدية الرجال والعمال والادوات من الخليج الفارسي لاحياء الاراضي وانشاء المدن في تلك البقعة الواسعة . ولا حياة للسكة الحديدية بغير احياء الارض . ففي اليوم الذي تلتقي فيه السكة الحديدية من البحر الاحمر بالسكة الحديدية من الخليج الفارسي تكون بطاح كلدانيا القديمة خضراء زاهرة تقوم بتصدير محصولاتها التي يطلبها الشرق او الغرب . وليس في الارض بقعة اجود تربة وانفع لزراعة الخضر والحبوب من هذه البقعة . فالقطن وقصب السكر والذرة والبرسيم والافيون والدخان وغيرها من النباتات التي تنمو في مصر تنمو ايضاً في تلك البلاد . وزد على ذلك ان جوها صالح لكل شيء . فبلادٌ هذه شأنها يجب ان لا تبقى مقفرة قاحلة في الوقت الذي ترحف فيها سكة حديد بغداد من الشمال واوربا تبحث عن ارض تستثمر فيها المال » اه